مواضيع
محمد عودة
١٠

الناصرية والماركسية
تجربة الماضي وآفاق المستقبل

أكثر من أي وقت مضى[١] ، فإن العلاقة بين القوى الثورية في الوطن العربي ، لم يعد ممكناً أن تترك للصدفة أو لعلاقات الود غير المبدئية ، أو لعقد الماضي وحساسياته . وإذا كانت السمة الأساسية للواقع العربي الراهن ، هي التكثيف المستمر للهجمة الإمبريالية الأمريكية الشرسة على الثورة الوطنية في المنطقة ، وما يستتبع ذلك من ردود أفعال تنتعش معها قوى اليمين العربية ، سواء تلك المتحالفة مباشرة مع الإمبريالية والعميلة لها ، أو تلك التي تغلب تناقضها الثانوي مع القوى الثورية على تناقضها الرئيسي مع الإمبريالية ، نتيجة لتدني الوعي ، أو لمحدودية تناقضها مع الإمبريالية أصلاً .

ولقد كان ضرورياً ـ قبل وقت طويل ـ أن يكون الحوار بين القوى الثورية قضية مطروحة وملحة ، فالهجمة الإمبريالية لم تكن شيئاً مفاجئاً ، بل كانت متوقعة ، ولكن الذي لم تنتبه إليه القوى المعادية للإمبريالية بمختلف فصائلها ـ هو أن تقليل حجم هذه الضربة أو شحذ القوى لمقاومتها رهين بتحقيق تحالف جبهوي فعال بين هذه القوى .

---

(١) نشر هذا الحوار في مجلة « الثقافة » البغدادية ، في مايو ١٩٧٤ ، وبعد أن بدأت ملامح الردة الساداتية تتضح ، وكان من المحاولات المبكرة ، لوضع أسس جديدة للحوار بين الشيوعيين والناصريين .

ومن الأسف أن القضية بهذا الشكل قد طرحت نفسها على الفكر الثوري العربي في أواسط الستينات[1] ، لكن تناولها كان أقل حيوية من ضرورتها ، وبمعدل أبطأ من إلحاحها ، ومن هنا جاءت الهجمة اليمينية الشرسة لقوى الإمبريالية بعدوان يونيو (حزيران) ١٩٦٧ ففاجأت هذه القوى وضربتها ضربة قوية وألزمتها التذبذب بين موقفي الدفاع والتراجع .

ومرة أخرى ونتيجة للواقع المعقد الذي فرضته أوضاع هزيمة حزيران ، تاهت قضية وحدة القوى الثورية بين قطبي موقفي الدفاع والتراجع ، في حين أن حسم هذه القضية كان أحد المداخل الرئيسية لحل القضية الوطنية في عالمنا العربي ، حلا صحيحاً يتسجيب ، وينسجم ، مع المطامع المشروعة لجماهير الشعوب العربية .

برغم كل شيء فإنه ـ وأكثر من أي وقت مضى ـ لا مفر ولا بديل من الحوار بين مختلف الفصائل الثورية المعادية للإمبريالية ، وخاصة تلك التي تنتظر للقضية الوطنية في إرتباطها بالإنتقال إلى الآفاق الإشتراكية ، حوار يستهدف الوصول إلى تحالف جبهوي فعال بين هذه القوى على المستوى النظري والعملي . وليس من الإخلاص في شيء للقضية الوطنية في وطننا العربي ، أن تترك قضية هذا التحالف للصدفة ، أو أن يفتقد الحوار لشجاعة الإلتزام بالهدف الأساسي ، فيخضع للمجاملات أو المزايدات أو تتحكم فيه عقد الماضي وحساسياته ، أو يخضع للعوامل الشخصية ، تلك كلها محاذير ينبغي أن نتنبّه ـ وأن نُنَبّه لها ـ باستمرار ، وأن نقاومها بشراسة في أنفسنا وفي الآخرين .

وإنطلاقاً من هذا يجيء هذا الحوار مع الأستاذ « محمد عودة » . الكاتب والمفكر المصري المعروف الذي ارتبط اسمه ـ أكثر ما ارتبط ـ بالتجربة الناصرية ، فقد قضى الأعوام العشرين السابقة من عمره ـ وعمرها ـ يدعمها

---

(١) كان عبد الناصر قد طرح في الميثاق ، فكرة وحدة الهدف بديلاً لوحدة الصف ، وفي عام ١٩٦٦ طرحت للحوار العام قضية وحدة القوى الثورية . وأجرت مجلة الطليعة ، بتكليف منه سلسلة حوارات مع الأحزاب العربية التقدمية ، لكن ذلك ، لم يتطرق لحوار مع القوى التقدمية في الداخل ، التي كان عبد الناصر يرفض استقلالها وتمايزها أصلاً .

بجهده وفكره كواحد من ألمع الكتاب السياسيين في الصحافة المصرية ، وعبر منابر متعددة بدأت بـ « المصور » ثم « صباح الخير » ، و « روز اليوسف » ، و « الأخبار » ، حيث استقر الآن في « الجمهورية »[1] وفوق هذا وذاك فقد أتيحت للأستاذ عودة فرصة التفاعل مع الفكر الثوري والواقع العملي لعصرنا من خلال زيارات متعددة لمعظم بلاد العالم كان يهتم خلالها بدراستها والتفاعل مع واقعها الإجتماعي وإتجاهاتها الفكرية والثورية .

والأستاذ عودة ينتمي سياسياً إلى ما اصطلح على تسميته بـ « اليسار الناصري » ، وهو يمثل إجتهاداً خاصاً في فهم (الناصرية) ، ويحاول في كل ما يكتبه أن يتفاعل مع تجربتها في ضوء هذا الإجتهاد ، وقد بلور هذا المفهوم في كتابه « ميلاد ثورة » الذي صدر الجزء الأول منه عام ١٩٧١ .

وقد سمحت لنفسي ـ لكي يؤتى هذا الحوار ثمرته ـ أن أتمثل موقف الفصائل المختلفة من الماركسيين المصريين من التجربة الناصرية ، وأن أنقل وجهات نظرهم ـ أو بعضها ـ في محاولة للحصول على رد منه عليها ، ولكني ـ بالطبع ـ لم أسمح لنفسي بالرد على ما أدلى به من أفكار ، إذ كان هدف الحوار منذ البداية هو تحديد نقاط الإتفاق والإختلاف وحصرها ، لكي تكون أمام كل المهتمين بالفكر الثوري والمتحاورين حول قضية الجبهة الوطنية في عالمنا العربي .

وإضافة إلى كل هذا أود أن أوضح أنني فيما نقلت من أفكار وفيما تلقيت من إجابة ، لم أكن ـ ولم يكن الأستاذ عودة أيضاً ـ نمثل أي كيانات سياسية ، لكن الحوار بمجمله قد دار في إطار النقاش والإجتهاد الفردي ، الذي يتلمس إتجاهات القوى ، وليس بالضرورة أن ينتمي إليها عضوياً .

وهذا هو نص الحوار :

صلاح عيسى : أستاذ عودة . . . يتردد في كتاباتك القول بأنك إشتراكي

---

(١) ضمن تصفية محرري اليسار من الجمهورية ، نقل الأستاذ عودة في مارس ١٩٧٥ ، إلى روز اليوسف .

ثوري ، فما هي ماهية هذه « الإشتراكية الثورية » ؟ وكيف تتميز عن الماركسية من جهة ، وعن الإشتراكية الديمقراطية من جهة أخرى ؟

محمد عودة : الإشتراكية الثورية هي فهم خاص للإشتراكية العلمية على ضوء ظروف مجتمعات العالم الثالث ، أو هي تطبيق الإشتراكية في هذه المجتمعات . وأنا أنظر للإشتراكية العلمية باعتبارها وسيلة للتغلغل في مشاكل ومتناقضات مجتمع معين ، للوصول إلى أفضل الطرق لمواجهة هذه المشاكل ، وحل تلك التناقضات . وفي عصرنا الراهن سنجد ثلاث نماذج للإشتراكية : الإشتراكية الماركسية والإشتراكية الديمقراطية ثم الإشتراكية الثورية أو إشتراكية العالم الثالث .

وليس صدفة أن الإشتراكية الماركسية قد ضربت جذورها في البلاد الأسيوية ، وأن الإشتراكية الديمقراطية قد زرعت نفسها في أوربا الغربية ، هذه كيانات إجتماعية لها خصوصية ونوعية ، تفرض أن يكون إستيعابها للإشتراكية ذا نوعية خاصة ، وبعد ظهور العالم الثالث في الخمسينات ، كان لا مناص من أن تبرز مفاهيم أخرى لتحقيق الإشتراكية ، ذلك أن حقائق من نوع جديد قد طرحت نفسها على المفاهيم الإشتراكية ، فماذا تفعل في مشاكل مجتمع كالمجتمع الهندي ، يموج بمتناقضات إجتماعية من نوع غريب ؟ . وكيف تستوعب الإشتراكية مشاكل المجتمع الهندوكي أو العربي الإسلامي . هذه مجتمعات فرضت على الإشتراكيين أن يستوعبوا الإشتراكية العلمية ، على ضوء الحقائق التي تطرحها تناقضات هذا العالم الذي يعاني من النهب الإستعماري ، وتنتشر فيه الإيديولوجيات المتخلفة ، ويفتقد لأي تبلور طبقي حقيقي ، والإستيعاب الخلاق للإشتراكية العلمية هو الوحيد القادر على الوصول بهذه المجتمعات إلى مفاتيح لحل مشاكلها .

إن الإجتهادات الإشتراكية السابقة لم تكن كافية لمواجهة واقع هذه البلاد المتخلفة ولا يعني هذا أن هذه الإجتهادات خاطئة ، ولكنها أساليب لمجتمعات محددة ، حققت نجاحاً لا شك فيه في مجتمعاتها ، وليس بالضرورة أن تحقق نفس النجاح في واقع ذو خصوصية معينة كواقع بلاد العالم الثالث .

وإذن : هل كان الطريق السوفيتي المعتمد على حزب لينيني قوي صالحاً ؟ ربما . ولكن ما العمل إذا كان هذا الحزب اللينيني غير موجود ؟ .

وهب كان الطريق الصيني الذي يعتمد على حزب فلاحي قوي وجيش ثوري شعبي صالحاً ؟ . ربما . ولكن السؤال السابق ما زال مطروحاً .

وهو أيضاً يواجه التساؤل الثالث حول صلاحية طريق أوروبا الشرقية في الإنتقال إلى الإشتراكية ، عن طريق جبهة وطنية في ظل وجود الجيش الأحمر .

وقد كان على إشتراكيي العالم الثالث أن يستوعبوا بعقل مفتوح هذه الطرق الموصلة إلى الإشتراكية ، وأن يدرسوا بعض عيوب التطبيق : هل كانت « الدولية » مثلاً في مصلحة الحركة الإشتراكية ؟ . ألم تؤدي إلى تعدد مراكز الإشعاع ؟ ألم تلق قيوداً على حركة وتفكير العديد من الأحزاب الإشتراكية ؟ .

في هذا الإطار من الفهم ، فإن الإشتراكية الثورية ليست سوى الأشتراكية العلمية كما ينبغي أن تواجه ظروف العالم الثالث . وهي حرة في الحركة وفي البحث ، أنها ملتزمة بالإشتراكية العلمية وليست ملتزمة بأنماط معينة ، وهي متحررة من هذه النمطية التي يتصور البعض أنها شيء ملازم للإشتراكية . والتحرير هنا ليس تمرداً يرفض ، ولكنه إستيعاب ودراسة وتمثل ثم إختيار . إن التجربة السوفيتية مثلاً تصبح بهذا المعنى مدرسة وليست معبداً . . وفي المدرسة يتناقش الناس ، أما في المعبد فهم يسمعون فقط ! .

صلاح عيسى : المتفق عليه بداهة أن الإشتراكية هي ايديولوجية طبقة . . فإذا كانت الماركسية هي إيديولوجية الطبقة العاملة ، وبالذات البروليتاريا الصناعية ، فإن الإشتراكية الديمقراطية قد إنتهت إلى أن أصبحت تيار وسطي برجوازي ، فأي الطبقات تمثل الإشتراكية الثورية ؟ هل هو تيار فكري قائم في الهواء ، أم أنه يمثل مصالح طبقات محددة . . وما هي ؟ .

محمد عودة : لا إختلاف في أن الإشتراكية العلمية هي - بشكل عام - إيديولوجية الطبقة العاملة ، سواء الشرائح التي تعمل باليد أو بالفكر ، ولكن الإشتراكية لا بد أن تصهر في الواقع ، فعندما يتوفر في مجتمع ما أغلبية من

الطبقة العاملة اليدوية ، فإن الإشتراكية تنصب في هذا القالب وهو ما سيؤثر في موقف الطبقة العاملة التي تبيع قوة العمل الذهني ويحدد موقعها ، والعكس صحيح .

في العالم الثالث فإن الأمر مختلف فلا طبقة عاملة ولا برجوازية ولا بروليتاريا بالمفهوم الكلاسيكي . ما نواجه به هو خليط من الطبقات المحرومة التي تنتهبها الإحتكارية العالمية ، طبقات مختلطة ومهملة من الداخل ، هناك بالقطع إختلافات قد تجد تبلوراً طبقياً في بلاد كالهند ومصر ، ولكن ماذا تجد في بلاد أفريقيا السوداء ؟ أو في اليمن ، هنا لا تجد صراعاً إجتماعياً أو طبقياً بالمعنى المفهوم ، فدرجة تطور المجتمع نفسه تتدنى بالصراع ليصبح صراعاً قبلياً أو طائفياً . إن الماركسية قد ظهرت في ظل تبلور طبقي واضح ، أو ما يمكن أن نسميه في ظل إزدهار برجوازي بروليتاري . . ومن هنا كانت إيديولوجية البروليتاريا . . لكن من أين نجيء بهذه البروليتاريا في العالم الثالث ! .

الجانب الآخر من الإشتراكية ـ غير أنها إيديولوجية طبقة ـ هو أنها إنتقال بالإنسانية من مرحلة متخلفة إلى مرحلة متقدمة ، من مرحلة إستغلال الإنسان للإنسان إلى مرحلة نفي هذا الإستغلال ، وهي بهذا المعنى تعبيء المحرومين لمواجهة المستغلين في معركة إجتماعية . وفي بلاد العالم الثالث يتركز الإستغلال في عمليات القهر الإستعماري الذي ينهب ثروات هذه الشعوب ، وفائض قيمة عملها في الزراعة أو حتى في الغابات ، فضلاً عن بعض الأوضاع الإجتماعية التي تتضمن إستغلالاً ما وبدرجة ما ، ومهما كانت درجة تخلف المجتمع وبدائية وسائل إنتاجه فإن هناك إستغلال بلا جدال .

والإشتراكية الثورية تعبر عن هؤلاء المحرومين كطبقة عريضة أو طبقات عريضة غير متبلورة أو مختلطة . وهي تسعى للعمل على نمو وعيهم وتبلور تنظيمهم بهدف تعبئة حلف طبقي من العمال والفلاحين والمثقفين الثوريين ـ أو أشباه هؤلاء في البلاد الأكثر تخلفاً ـ للدخول بهم في معركة طبقية ضد النهب الإستعماري والقهر الإستغلالي وإقامة سلطتهم الثورية . والمطلوب ـ بالدرجة الأولى ـ أن يدرس المجتمع المعين دراسة خاصة . ندرس خريطته الإجتماعية

وأشكال ومعدلات الإستغلال ، لكي تحدد قوى الثورة الإشتراكية وقوى أعدائها في كل مرحلة . إن الإستغلال في بلاد العالم الثالث يأخذ أحياناً شكل إستغلال الكيان القومي كله . ومن هذه الدراسة تكون البداية لحشد حلف طبقي من المستغلين والإشتراكية الثورية هي إيديولوجية هذا الحلف وهي وسيلته للوعي وللتنظيم .

صلاح عيسى : ربما يقود هذا إلى خلاف في مفهوم التنظيم ، فالماركسية تنظر للأحزاب كطلائع سياسية لطبقات محددة ، فكيف تنظر الإشتراكية الثورية إلى هذه القضية ؟ .

محمد عودة : هل نبدأ مما هو كائن أم بما يجب أن يكون ؟ الصحيح في منظور الإشتراكية ـ بمختلف طرقها المتعددة للتحقق ـ هو الحزب ذي الإيديولوجية الواضحة والتكوين الطبقي المحدد ، والبرنامج السياسي الواضح ، والكوادر المتمرسة والمناضلة والمرتبطة بالجماهير . هذا هو الطريق الأمثل . ولكنه لا يصنع ولا يُفرض . لماذا كان هناك حزب شيوعي قوي في الصين ، بينما لم يكن هناك حزب بنفس الدرجة من القوة في الهند ، وهما متجاورتان ، وتخضعان لظروف حضارية متقاربة ؟ . إن عدم وجود الحزب لا يعني أن نضع يدنا على خدودنا ونتنظر وجوده . وفي حالة وجوده بشكل قوي وفعال ودون أخطاء في الممارسة أو في التنظيم ، فهو يحقق ما تنادي به الإشتراكية الثورية . لكن في كل الأحوال لا بد من إقامة التنظيم الأصلح لقيادة الناس ، كل ما يمكن أن يقود . قد يكون حزب ماركسي لينيني . وقد يكون حزباً وطنياً ينمو وعيه بالمشكلة الطبقية . قد يكون جيشاً وطنياً يأخذ مهمة الحزب والجيش ويؤدي في ظروف خاصة دور التحول الثوري . أن هذا كله يعني الإيمان بحقيقة أساسية وهي أن قوة الجماهير الحقيقية في تنظيمها وأن يعبر عنها حزب سياسي ثوري ولكن تحت أي شعارات ؟ . هذه مسألة تبدأ من الواقع المحدد لكل بلد في إطار المبادىء الأساسية العامة للإشتراكية .

صلاح عيسى : في ضوء هذا الطرح النظري العام . . هل تعتبر « الناصرية » من ضمن تيار الإشتراكية الثورية ؟

محمد عودة : بالقطع .. بل إن عبد الناصر ساهم مساهمة فعالة في صياغة هذا التيار .. ولكني أفضل إستخدام تعبير « التطبيق العربي المصري للإشتراكية الذي بدأه وقاده جمال عبد الناصر » .

صلاح عيسى : أوافق على أن نستخدم مصطلح « الناصرية » بالمفهوم الذي حددته .. على أن نستخدمه كتعبير لتسهيل مهمة التحاور . فهل توافق ؟ .

محمد عودة : أوافق .

صلاح عيسى : أود أن أطرح عليك الخطوط العامة للنقد الذي يوجهه الماركسيون للناصرية ، ولست في موقف الدفاع عن هذه الإنتقادات ، لأنها لا تعبر كلها عن رأيي بالتحديد ـ الذي قد يكون أقسى أو أهدأ من ناحية ، ولأني أود أن أتيح لك فرصة للرد تحدد نقاط الإختلاف والإتفاق بين الناصرية والماركسية كتيارين ثوريين معادين للإستعمار من ناحية أخرى . وفي ضوء هذا فإن فصائل كثيرة من الماركسيين ترى في أحلام العدل الإجتماعي التي طرحتها الناصرية نوعاً من إشتراكية البرجوازية الصغيرة ، تلك الإشتراكية التي تنتمي في النهاية للتيار البرجوازي ككل . فماذا تقول ؟ .

محمد عودة : أرحب بالطبع بأي حوار ، وأظن أنه ضروري ومطلوب . وبشكل عام فإن هناك نقداً يسارياً للناصرية من كل الفصائل التي تتصور أو تقف بالفعل على يسارها ، وهذا نقد إيجابي للناصرية لا بد أن نشجعه وأن نخلق حواراً بين الناصرية وبين الماركسية وبين كافة الإتجاهات اليسارية الأخرى كالتيارات القومية اليسارية (القوميين العرب ـ البعثيين ـ المقاومة الفلسطينية) ، وأنا أعتقد بأن على كل الإتجاهات التقدمية والثورية أن تتحاور ، ذلك أن مأساة الثورة العربية كانت في المعارك غير الضرورية بين فصائل الثورة العربية . وهذه المعارك كانت هي المصدر الرئيسي لقوة اليمين العربي والرجعية العربية . وفيما يتعلق بالنقد الماركسي للناصرية فإن هناك نقداً ماركسياً حقيقياً لها يريد أن يطورها ويدفعها إلى الأمام ويتحاور ويتفاعل معها . وهناك نقد ماركسي ساذج يرفض الناصرية رفضاً تاماً ويصفها بأنها إجهاض للثورة أو ثورة مضادة ، ومثل

هذا النقد في رأيي لا هو ثورية ولا هو وطنية ، وبالطبع فإن الهجمة اليمينية الضارية على الناصرية والتي تتخذ الناصرية قناعاً لتهجم بالهجوم عليه على كل فصائل الثورة وتصفيها تماماً ليست موضوعنا .

صلاح عيسى : هذه بداية موفقة . . وإذن فماذا تقول في مسألة « إشتراكية البرجوازية الصغيرة » ؟ .

محمد عودة : لا شك أن الناصرية بدأت من البرجوازية المصرية الصغيرة . لكن ما أود أن أوضحه هنا هو الإختلاف بين البرجوازية الصغيرة في العالم الثالث وبين برجوازية أوروبا الصغيرة . في أوروبا فإن البرجوازية الصغيرة هي آخر حدود البرجوازية ، أو آخر مواقع دفاعها ، لذلك فهي تستميت دائماً في الدفاع عن البرجوازية لأنها تخشى أن تقع إلى أسفل ، والبرجوازية الكبيرة تعرف هذا وتشجعه لتكون البرجوازية الصغيرة خط دفاع قوي - بحكم أنها فئة عريضة نسبياً - يحمي المجتمع البرجوازي الإستغلالي .

في بلاد العالم الثالث يختلف الوضع فهي طبقة - أو فئة - تقع عليها كل أعباء الإستغلال الطبقي والإستعماري ، لذلك فإن إتجاهاتها الثورية تكون أكثر تبلوراً ووضوحاً ، كما أن المشكلة الإجتماعية تطرح نفسها على وعيها . ومن حيث الإتجاهات السياسية فإن البرجوازية الصغيرة في بلاد العالم الثالث تنقسم عادة وتتوزع بين ثلاثة إتجاهات :

الأول : عناصر ذات وعي وطني وإجتماعي تعي مصلحتها في إرتباط بمصالح الجماهير الشعبية عمومياً وهؤلاء يتجهون بالثورة إلى مزيد من الإنجازات المعادية للإستغلال الإستعماري وللإستغلال الطبقي ، أن هؤلاء ينحون إلى التحالف مع الطبقة العاملة والفلاحين الفقراء ، ويقودون الثورة إلى التحالف مع أسفل السلم الإجتماعي .

الثاني : عناصر ذات وعي وطني ووعي إجتماعي متخلف ، وهي قد تقود ثورة تشترك في الكفاح الوطني ولكن لتزيح البرجوازية الكبيرة وتقود هي المجتمع في ظل توازن طبقي أو في ظل إصلاح شكلي في إطار النظام القائم .

الثالث : عناصر يقودها تدني الوعي الوطني والإجتماعي معاً إلى مواقع فاشية في الرؤية أو في الممارسة ، أو بعث آراء وأفكار خاطئة كالأفكار الثيوقراطية أو المتعصبة قومياً ، وهي أفكار تخدم في المدى القصير - والبعيد - البرجوازية الكبيرة وربما الإستعمار أيضاً .

وهناك بالطبع فئة لا منتمية من البرجوازية الصغيرة تتمثل في العناصر البيروقراطية والتكنوقراطية .

في ضوء هذا ليس عيباً أن تكون الناصرية تعبيراً عن البرجوازية الصغيرة ، ولكن أي شرائح من تلك البرجوازية الصغيرة ، وأي إتجاه سياسي ؟ . لقد كانت الناصرية تعبيراً عن الشرائح الصغيرة والثورية من البرجوازية التي تعي وتخطط لتقود المجتمع إلى أشتراكية كاملة .

صلاح عيسى :أترى إذن أن البرجوازية المصرية الصغيرة كانت هي وحدها المؤهلة لنقل المجتمع المصري إلى الإشتراكية ؟ .

محمد عودة : في الواقع المصري لم يكن هناك طريق اخر ، فقد كانت الناصرية تعبيراً عن فشل الأحزاب السياسية القديمة والجديدة ، وعجزها عن تحقيق الثورة والوصول إلى ، إلى السلطة ، إذ لو كانت الأحزاب الوطنية التقليدية ويمثلها الوفد المصري ، قادرة على تحقيق ثورة في الإطارات التي كانت قائمة وقتها ، ولو كانت الحركات الجديدة كالشيوعيين والأخوان المسلمين والإشتراكيين الديمقراطيين قادرة على ذلك لفعلته . ولقد قامت الحركة الناصرية وبدأت وطنية ولكنها إكتشفت في مواجهة القضية الوطنية الطريق الذي سارت فيه . ولقد كان ممكناً للقوى اليسارية وقتها أن تدفعها للأمام بالنقد وليس بالهجوم ، بالحوار وليس بالعداء .

صلاح عيسى : أيكن من وجهة نظر الإشتراكيين الثوريين تعميم فكرة حتمية قيادة البرجوازية الصغيرة للثورة الوطنية والإشتراكية ؟ .

محمد عودة : البرجوازية الصغيرة في بلادنا وبلاد العالم الثالث لا مناص لزمن طويل أن تتصدر قيادة قضيتنا الوطنية والإجتماعية حتى تقوم طبقة عاملة

حقيقية ، وحتى يتصحح الكيان الإجتماعي وتقوم طبقة عاملة قوية وتتحطم علاقات الإنتاج الإقطاعية أو شبه الإقطاعية وهذه حتمية تاريخية لا مفر منها .
كيف يمكن أن تقوم ثورة بروليتارية بلا بروليتاريا أو فلاحين أو إنتلجنسيا ماركسية ! .

صلاح عيسى : أليس هناك احتمال أن تخون هذ البرجوازية الصغيرة الثورة ؟ .

محمد عودة : هو إحتمال ضئيل ، وبالطبع فإن تصدرها للثورة رهين بألا تخون ، وأظن أنه محتوم عليها ان تسير في طريق الثورة ، لكن هذا لا يمنع من أنها قد تتأرجح بين العداء للإستعمار والتهادن معه ، ولا بد أن نقبل حقيقة أنها القيادة الوحيدة المتوفرة ونلائم أنفسنا لها .

صلاح عيسى : يلاحظ بعض المتتبعين لتطورات الحركة الشعبية في مصر على مشارف ثورة يوليو ١٩٥٢ . أن تفسيخ النظام القديم قد تم بنضال شعبي منظم ، لم يكن قوياً تماماً ، ولكن كان في اتجاه التبلور وهذا تمكن « عبد الناصر » بجهد قليل من هز نظام كانت تناقضاته الداخلية قد هزته . وفي حين كان منتظراً أن تستفيد حركة « عبد الناصر » من هذا المد الشعبي الديمقراطي فإنها ـ وهذا ما يركز عليه العديد من الماركسيين ـ قد وضعت الشعب في القفص ، وطردته من الحلبة ، وحكمت بالأجهزة الإدارية والبوليسية ، وبرغم أن بعض إنجازاتها كانت لمصلحة الشعب في المدى المباشر والتاريخي ، فإن الناقدين يرون أن الخسارة بوضع الشعب في القفص أكثر فداحة من المكاسب التي تحققت بالفعل ، فمن ناحية أدى هذا إلى العصف بهذه المكاسب عند أول منحنى ، ومن ناحية أخرى فان الشعب المنظم هو وحده القادر على تحقيق مكاسب أفضل وحمايتها. فماذا تقول ؟ ! .

محمد عودة : أود أولاً ألا ننسى أن « عبد الناصر » كان بطلاً تاريخياً ، والأبطال التاريخيون لا يحاسبون بالحسابات العادية أو بالموازين الشائعة . أذكر أن أحدى الصحف الهندية نشرت مرة مقالاً عنوانه « نهرو . . هل هو ديكتاتور ؟ » وأخذت تتحدث عن ديكتاتورية « نهرو » وأنه يستطيع أن يفعل ما

يشاء . ثم تساءل الكاتب : هل هذا في صالح الهند أم ضدها ؟ . وقال في النهاية إنه لصالحها . وقد إتضح فيما بعد أن صاحب هذه المقالة هو « نهرو » نفسه ! . ولا أظن أن أي مقاييس عادية تصلح لتقييم أدوار شخصيات مثل « نهرو » أو « غاندي » أو « عبد الناصر » أو « ستالين » أو « لينين » أو « ماوتسي تونج » . فعند النظر إلى هذه الشخصيات سنواجه على الفور بأن لهم سطوة شخصية وتأثير فردي على الظواهر السياسية في بلادهم ومنطقتهم وعالمهم . وهذه ظواهر لا يفسرها المنطق العادي .

لقد كان عبد الناصر استمراراً لـ« محمد علي » و «ابراهيم» «وعرابي» وسعد زغلول » « ومصطفى النحاس » ، والملاحظة العامة أن من يقود مصر لا بد أن يكون دائماً عملاقاً ذلك أن موقع مصر الإستراتيجي يجعلها دائماً في مركز من يلعب دوراً قيادياً في منطقة حساسة في العالم ، وهي بذلك تواجه تحديات لا حد لها ، ومن هنا كانت دائماً عَمْلَقَة من يقودها . ومن الملاحظ أن كل القيادات التاريخية المصرية قد إتهمت بنفس التهمة : الديكتاتورية والجبروت الغاشم . وجهت هذه التهمة الى « عرابي » ، وأن تعلم من الذين إتهموه بهذا ، أنهم أنفسهم الذين اتهموا بها « سعد زغلول » فوصفهم بأنهم برداع ـ أو مطايا ـ الإنجليز ، واتهم « مصطفى النحاس » بأنه ديكتاتور ، بينما كتب صحفي مشهور يرد ، فقال إنه حاكم ضعيف لأنه يترك أعداء الشعب وأعداء الديمقراطية يتآمرون به لأنه ديمقراطي .

إن من يقود مصر لا بد أن يكون في حجم التحديات التي تواجه مصر . ولقد كان « عبد الناصر » في إطار الزعامة التاريخية لمصر تحدياً لكل النظام الإستعماري الإستغلالي ، كان الآخرون يتحدون هذا النظام نسبياً ، أما هو فقد تناقض معه تناقضاً عدائياً وتحداه تحدياً كاملاً ، من هنا كان حجم زعامته ، ومن هنا كان محتاجاً إلى قوة مركزية كبيرة ، تمكنه من الصدام مع النظام الإمبريالي والإستغلال الطبقي ، وكانت هذه القوة هي مصدر إتهامه بالديكتاتورية بأقسى وأشرس ما اتهم به الآخرون . وليس صحيحاً أنه قهر الجماهير المصرية أو نفاها أو أبعدها ، وقد كان طول حياته في صفها وكانت في

صفه ، وأذكرك بأفواج الجماهير التي خرجت في عامي ٥٢ و١٩٥٣ بعد الثورة ، وفي ١٩٥٦ أيام تأميم القنال، ويوم خطبة الأزهر أثناء العدوان الأول في ٢ نوفمبر ١٩٥٦ ، وجماهير يوم الإنفصال في سوريا ، وجماهير ٩ و١٠ يونيو والذين ودعوه يوم وفاته عام ١٩٧٠ ، ولا أظن أن جماهيرنا المصرية التي عركتها السياسة منذ حملة نابليون ، وأنت من المهتمين بدراسة التاريخ وتعرف هذا ، فهل تظن أن جماهيرنا مسحوقة بهذه الدرجة . لقد وزع « عبد الناصر » الأرض وبنى الجيش والمصانع وأدخل أبناء الفلاحين الكليات العسكرية ، ومعنى هذا أنه أدخل الجماهير إلى حلبة التقدم وإلى نسيج قيادة النظام الإجتماعي ، وأطلق حريتها الحقيقية ، في بلاد العالم الثالث فإن الحرية الحقيقية للجماهير تبدأ بتحريرها من الإستعباد والإستغلال . . من الجوع والجهل . وهذه حرية « عبد الناصر » ، وتلك هي ديمقراطيته .

صلاح عيسى : نحن نتحدث فيما أظن عن الجماهير باعتبارها « ذوات سياسية » أنا لا أشك في أن عبد الناصر قد حاز حب أقسام عريضة من الشعوب العربية ، لكن الجماهير تكون في الأوضاع الثورية حيث هي واعية ومنظمة ، أما المواكب فإن عوامل عديدة قد تتدخل فيها ، ولعلك تذكر أن حفل زفاف « الملك فاروق » و « الملكة ناريمان » في عام ١٩٥٠ قد شهد زحاماً لا مثيل له . وما أود أن أسألك عنه : هل تظن أن العلاقة بين « عبد الناصر » والجماهير كانت سليمة تماماً وكما ينبغي أن تكون ؟ .

محمد عودة : أظن أن خطأ « عبد الناصر » الرئيسي والكبير أنه كان الوحيد القادر على تعبئة وتنظيم هذه الجماهير في تنظيم سياسي يعبر عنها ، ويجند أفضل عناصر الشعب المصري ، ولكنه اعتمد على العلاقة المباشرة بينه وبين الجماهير ، وصحيح أنه لم يتنبه لهذا الخطأ مبكراً ، لكنه على أي الأحوال ظل يبحث ويعاني للوصول إلى هذا التنظيم . وتطور من « هيئة التحرير » الخاوية والفاقدة لأي محتوى إلى « الإتحاد القومي » الزاخر بالتناقضات ، وانتهى إلى « الإتحاد الإشتراكي » الذي كان في سنواته الأخيرة وعقب برنامج مارس ١٩٦٨ قد وضع قدمه إلى بداية الطريق الصحيح . وربما كان « عبد الناصر »

ينوي أن يواصل البحث للوصول ، ولكنه مع هذا مسؤول عن أنه لم يترك لنا تنظيماً شعبياً وترك هذ الثغرة الكبيرة .

وهناك نقطة أخرى ، كان « عبد الناصر » يحكم وسط تناقضات ضارية داخلية وخارجية لقد كانت مصر محاطة بالتهديدات التي شنتها المخابرات الإسرائيلية والألمانية الغربية والأمريكية ، ووسط هذه التهديدات الأخطبوطية الدولية كان لا بد أن يبنى أجهزة أمن قوية . ولكن ربما كانت غلطة « عبد الناصر » الكبيرة أنه لم يضع لهذه الأجهزة الحدود التي كان يجب ألا تتجاوزها ، الأمر الذي أدى إلى تجاوز هذه الأجهزة لحدودها في حالات . ولكن عند المقارنة بالثورات الأخرى فإن إنتهاك الشرعية في مصر كان في أضيق الحدود ، وكان نسبياً ، ومهما كانت الحالات إلا أنها كانت حالات ، وهذا ليس تبريراً ولكنه رد على من يريدون تصوير « عبد الناصر » كما لو كان سجاناً كل مهمته إيداع الأبرياء في المعتقلات والسجون .

صلاح عيسى : المشكلة لم تكن في الخطأ في أيداع أفراد في المعتقلات فقط ، ولكن أساساً في تحطيم الكيانات الحزبية الثورية التي كانت قائمة وقت الثورة ، والتي لم يكن ثمة تناقض رئيسي بينها وبين النظام الجديد ، وبعضها كان ينتمي لجماهير هذه الثورة ! .

محمد عودة : لقد واجه « عبد الناصر » مؤسسات سياسية قوية : **الوفد** . **الأخوان المسلمون** . **الشيوعيون** . **الحزب الإشتراكي** . . . الخ . لقد رفض **الوفد** التعاون معه بسبب الإصلاح الزراعي . **والأخوان** رفضوا التعاون معه إلا إذا حول مصر إلى دولة ثيوقراطية . وانقسم **الشيوعيون** إلى قسمين أحدهما كان راغباً في التعاون معه بشرط والثاني رفضه تماماً وأعلن أنه عميل للمخابرات الأمريكية . ثم لجأ « **الأخوان** » إلى الإرهاب الدموي وهو طريقهم التقليدي ، فكانوا أول من أطلق الرصاص . وحينما تطلق الرصاص ضد ثورة ، فإن الإرهاب حلقة مفرغة ، فالإرهاب الثوري لا بد وأن يواجه الإرهاب الرجعي . بالنسبة للشيوعيين فلم يكن لديهم تشخيص حقيقي للثورة أو ميزان دقيق لقوتهم ، ومن هنا تعقدت الخريطة أمامه . وإذا كانت معظم هذه القوى لم

تستطع أن تحدد موقفاً صحيحاً فلماذا نتصور أن « عبد الناصر » ، ـ وكان في هذا الوقت مجرد ضابط وطني معادي للإستعمار ـ كان مفروضاً أن يعي بالضرورة وأن يتصرف على أساسها .

صلاح عيسى : ألا تعتقد أنه كان الأوفق وقتها أن تجمع ثورة يوليو ١٩٥٢ الأحزاب الوطنية المعادية للإستعمار والأحزاب التقدمية واليسارية في جبهة وطنية كانت قادرة على التفاعل والتأثير المشترك .

محمد عودة : لا شك أن هذا كان التصرف السليم ، ولو حدث لما حدثت مشاكل كثيرة . . على الأقل لما حدثت نكسة ١٩٦٧ .

صلاح عيسى : يعتقد كثيرون من الماركسيين ، أن العلاقة بين « عبد الناصر » وبين المعسكر الإشتراكي لم تكن علاقة مبدئية ، وأنه كان يبني سياسته على أساس الأخذ من أحد المعسكرين لمساومة المعسكر الآخر .

محمد عودة : أذكر لك أنني كنت في موسكو ذات يوم وسألت متحدثاً رسمياً في وزارة الخارجية السوفيتية : لماذا تحتفون بعبد الناصر هذا الإحتفاء غير العادي وهو ليس متحمساً للشيوعية . فقال لي : نحن نحترم « عبد الناصر » لأن ما يقوله في موسكو هو نفس ما قد يقوله في واشنطن . وهذا هو الفرق بينه وبين كثيرين من زعماء العالم الثالث . كانت سياسة « عبد الناصر » الخارجية سياسة مبدئية . لقد كان على « عبد الناصر » في عام ١٩٥٤ أن يختار ويحدد مصير مصر في المعترك الدولي : هل ينضم لحلف الشرق الأوسط وتصبح مصر قاعدة أطلنطية كما فعلت تركيا أو إيران . أو أن يختار باندونج . وعبأت قوى الغرب نفسها واحتشدت كما لم يسبق لها أن فعلت لارهابه وترغيبه ، فقد كانت تدرك أن مصر ما لم تصبح أطلنطية فان الشرق الأوسط كله سيضيع من قبضة الأطلنطي . وكانت المعركة غير متكافئة ومع ذلك ـ وبرغم أنها كانت ، أولى معاركه الكبيرة ـ فقد خاضها « عبد الناصر » وقبل التحدي واختار باندونج . وباختياره لها نجحت باندونج . كان يمكن أن تقتصر فتصبح سياسة آسيوية فقط تنتهي عند حدود الهند ، لكن «عبد الناصر» نقل إليها الشرق الأوسط كله . وكانت سياسة باندونج مكسباً لحركة التحرر الوطني وللجبهة العالمية المعادية

للإستعمار وللإمبريالية . وكانت بداية سياسة عدم الإنحياز وهي تعني الحرية في تأييد المواقف الدولية حسب الواقع والمصالح لمجموعة باندونج .

صلاح عيسى : يذهب « مايلز كوبلاند » العميل الشهير للمخابرات الأمريكية إلى القول بأن القروض التي أخذتها مصر من المعسكر الإشتراكي برغم التسهيلات الإئتمانية الكبيرة وضآلة الفوائد ، تكاد توازي القروض التي حصلت عليها من الدول الغربية برغم أن قروض الدول الغربية كانت بفائدة مرتفعة جداً وبشروط في الإستثمار . وهو يقول من ناحية أخرى أن سياسة باندونج كانت مكسباً في النهاية للولايات المتحدة الأمريكية لأنها عزلت عن الشيوعية دولاً آسيوية كانت بها حركات ثورية قوية . فماذا تقول ؟ .

محمد عودة : إنني أعترض أولاً على الإستشهاد بكوبلاند ، فنحن لا ننتظر من عميل للمخابرات الأمريكية إلا إثارة الشك في الزعماء الوطنيين المعادين للإمبريالية الأمريكية ، ولعلنا نذكر « لعبة الأمم » و « الطائرات تتحطم في الفجر » ، و « خروشوف يتذكر » و « مذكرات بانوكوفسكي » . . الخ . وبالنسبة لمسألة باندونج ، فليس صحيحاً أن الأمريكيين قد رحبوا بها ، فقد هاجمها « دالاس » هجوماً عنيفاً ، وقد أدت سياسة باندونج إلى فشل السياسة الأطلنطية لأنه لا معنى للأطلنطي دون الشرق الأوسط ، ومنذ الخمسينات والسياسة الأمريكية في العالم كله تبنى على أساس السيطرة والتحكم في هذه المنطقة الحساسة من العالم ، ولم تكن معركة ١٩٥٦ سوى هجوم أمريكي غربي بدأت خطوطه الأولى من الإنزعاج الأمريكي من باندونج . وقد تشكك الإتحاد السوفيتي في البداية بباندونج ، ولكنه أدرك بعد ذلك أهمية هذه السياسة ودورها الفعال في مقاومة الإمبريالية، وفي دعم التحالف بين حركات التحرير الوطني والعالم الإشتراكي . وفي دعم هذا التحالف كان عبد الناصر من أكثر زعماء العالم الثالث صلة وإرتباطاً وصداقة بالمجموعة الإشتراكية .

صلاح عيسى : وماذا عن القروض ؟ ! .

محمد عودة : نحن نتعامل مع عالم معقد ، وفي التعامل معه لا يمكن أن نعزل أو أن نتجاهل حقيقة وجود الكتلة الغربية ، إن العالم العربي ـ ومصر في

قلبه ـ لا يمكن إلا أن تكون له سياسة تجاه الغرب ، سياسة تقوم على التعامل معه وحماية أنفسنا منه ، إما تجاهله والتصرف على أساس أنه غير موجود فهذه حماقة لا يتحمل إنسان أو سياسي مسؤوليتها . لقد خاض « عبد الناصر » حرب ١٩٥٦ ضد الغرب الأوروبي . وخاض حرب ١٩٦٧ ضد الولايات المتحدة الأمريكية . ومع ذلك فقد كان مطالباً بأن تكون له سياسة عملية تجاه هذا الغرب . والمعسكر الإشتراكي نفسه له سياسة عملية تجاه المعسكر الغربي ، وهناك فرق بين التسليم للغرب وبين التعامل معه ، ومع ذلك فإن قروض المعسكر الإشتراكي ـ وعلى رأسه المعسكر السوفيتي ـ كانت هي القروض الفعالة ، إنها قروض التسليح والتصنيع الثقيل والسد العالي ، أما قروض الغرب فكانت تكميلية وفي أنشطة فرعية . وأيضاً فإن الإرتباط الدولي الوثيق كان مع المعسكر الإشتراكي . ولكن هذا شيء والإنضمام إليه ككتلة دولية شيء آخر .

صلاح عيسى : لكن هذه العلاقات المالية مع دول الغرب كانت تؤثر بالفعل في السياسة المصرية ، والمثل على ذلك هو العلاقة مع ألمانيا الغربية .

محمد عودة : لا أظن أن المسألة كانت بهذه الدرجة ، فقد كانت مصر طليعة الحملة العربية على ألمانيا الغربية برغم القروض والبعثات ، وكانت مصر على علاقة ودية بألمانيا الديمقراطية لدرجة أن « أولبرخت » زار مصر ضيفاً على « عبد الناصر » في أوج العلاقة مع ألمانيا الغربية . وهناك تعبير مشهور لنهرو يقول فيه أن هناك انتهازية مشروعة وأخرى ساقطة . وطالما أن « عبد الناصر » كان يحاول الإستفادة من التناقضات الدولية لصالح وطني فما كان يفعله ليس خطيئة . وفكرة « عبد الناصر » الأساسية كانت تنطلق من الإيمان بقاعدة الدفاع من الداخل والإعتماد على الذات ، وكان ذلك العامل الحاسم في فكره وهو في السياسة الدولية قد أخذ شكل عدم الإنحياز .

صلاح عيسى : فيما يتعلق بالسياسة العربية . فإن ممارسات عبد الناصر في السياسة العربية تتهم عادة بأنها قامت على قاعدة الإعتماد على الأجراء وليس الشركاء ، وأن المجهود الأساسي لأجهزة النظام المصري قد وجه لتحطيم القوى

الثورية ذات الكيانات الحزبية ، وأن هذه الأجهزة قد أفسدت ودمرت القوى الثورية العربية بظن أنها تستطيع أن تقيم إنقلابات عسكرية فيها تكون بديلة عن هذه الأحزاب الجماهيرية . فما رأيك في هذا الإتهام ؟ !

محمد عودة : الواقع أن تجربة الوحدة المصرية السورية ، أول وآخر تجارب الوحدة العربية في عصرنا ، تكشف عن خطأ كل الأطراف التي شاركت فيها وأخطاء منطلقاتها ، فلماذا تحمل الناصرية وحدها العبء ؟ . لقد ابتسرت الوحدة وجرت بسرعة لاهثة ، ولأسباب عارضة ، فقد كان الخوف من الشيوعية هو الذي حرك الأطراف السورية التي جاءت تطلبها ، وفي فترة الوحدة الأولى لم يكن ثمة خوف من شيء وظهرت الوحدة باعتبارها حلاً لمشاكل سوريا كلها . وأذكر أنني سألت « أكرم الحوراني » عما إذا كان هناك خوف على الديمقراطية في سوريا من وحدتها مع مصر ، فكان رده : أن نصف أعضاء البرلمان السوري ـ وقتها ـ يقبضون من السعودية . وكان الشيوعيون السوريون من أشد المتحمسين لعبد الناصر . وقد قال لي « خالد بكداش » أيامها وكنت أقارن بين « عبد الناصر » و «سوكارنو » أن المقارنة بينهما ظلم فادح لعبد الناصر ، وأن « عبد الناصر » لا يقارن إلا بماوتسي تونغ . ومؤتمر « الحزب الشيوعي العراقي » عام ١٩٥٦ ـ ووثائقه موجودة ـ يعبر عن رأي متحمس في قيادة « عبد الناصر » . فما الذي حدث ؟ لماذا أصبحت قضية الحزبية هي القضية الأولى بعد الوحدة ، ولماذا انتشر القول بديكتاتورية « عبد الناصر » . ولماذا غضب « الحوراني » لمجلس النواب الذي كان نصف أعضائه يقبضون من السعودية . وكيف تصرف « بكداش » كما تصرف ؟ ولماذا أخطأ الشيوعيون العراقيون فقالوا : « إن روانتري ـ وكيل وزارة الخارجية الأمريكية ـ قد وجد له في مصر عملاء جدداً » في حين أن مصر كانت طوال حكم نوري السعيد هي ملاذ الشيوعيين وملجأهم .

صلاح عيسى : أتعني أنه لم تكن هناك أخطاء ؟ .

محمد عودة : لا أريد أن أبتر الموضوع ، ولا أن أحوله إلى كشف حساب بارد ، ولكن تعال نتناقش لنعرف بالتحديد ماذا فعل « عبد الناصر » في الساحة

العربية . . إذا حللنا دوره فسنصل إلى الخطأ الذي أنت شغوف بالبحث عنه ، ولكن في إطار ظروفه ، أنا مثلك شغوف بالبحث عن هذا الخطأ لا للتشفي في الأموات ، كما يفعل اليمين العميل المتدني أخلاقياً والخائن سياسياً ، ولكن لأنني أثق أنك تريد أن نصل إلى مستقبل أفضل من ماضينا ، وهذا ما أريده أيضاً . .

صلاح عيسى : أوافقك على هذا التشخيص لهدف الحوار ، وفي رأيي أن عبد الناصر كان خطوة على الطريق ، وربما نحن نتحاور للبحث عن مزيد من الخطوات . . فكيف ترى الموقف الناصري على الساحة العربية من هذا المنطلق ؟ .

محمد عودة : لا يستطيع أحد أن ينكر أن « عبد الناصر » حدد الإختيار العربي والثوري لمصر . وأنت تعلم أن إستراتيجية الإستعمار الغربي منذ أيام محمد علي كانت إبقاء مصر مصرية داخل حدودها . وكانت أول تجربة في إقامة دولة عربية هي التي بدأها « محمد علي » « وإبراهيم » ثم ضربتها أوربا كلها مجتمعة . ووضع بالمرستون القاعدة التي قالت أن مصر كأساس لقوة عربية هي أكبر خطر يهدد المصالح الأوروبية ، وليس فقط المصالح البريطانية ، ولهذا اجتمعت أوروبا كلها لأول مرة وآخر مرة بما فيها فرنسا صديقه « محمد علي » وضربت التجربة ، وأصبحت القاعدة أن إمبراطورية الرجل المريض في تركيا ، أكثر مناسبة لأوروبا من دولة عربية فتية . وظلت مصر مصرية حتى قيام الجامعة العربية التي قامت بوحي من « أنتوني إيدن » بهدف إنشاء قوة عربية تحت الوصاية البريطانية لمواجهة الخطر الأمريكي وما سمي بالخطر السوفيتي . وبرغم ذلك ظل الصراع الفكري والسياسي قائماً في مصر يتساءل عن موقفها : هل هي عربية ؟ هل هي إفريقية ، أم أوروبية بحر متوسطية ، أم هي شيء فريد في ذاته ؟ . وجاء « عبد الناصر » وحطم كل الأطواق الإيديولوجية والإستراتيجية التي كانت تحيط بمصر وحدد الإختيار العربي الثوري والتزم به طوال حياته ، واختار شعارات الحرية والإشتراكية والوحدة كأهداف لهذا الإختيار .

وعندما حل « عبد الناصر » أولى مشاكله العربية ، وهي مشكلة السودان حلاً يقوم على الفهم الديمقراطي لقضية الوحدة ، وجد أمامه المشكلة الثانية

وهي المشكلة السورية . . ومنذ الحرب العالمية الثانية وسوريا ميدان لصراع عنيف وجاد بين بريطانيا وأمريكا اللتين أرادتا الحلول محل فرنسا المطرودة . كانت الولايات المتحدة تريد سوريا قاعدة لحماية خطوط البترول وخط دفاع ثان عن إسرائيل ثم قاعدة لحلف الشرق الأوسط ، وكانت بريطانيا تريدها ضرورة إستراتيجية لتحقيق الهلال الخصيب وموازنة النفوذ الأمريكي . وهكذا أصبحت سوريا ميداناً لأول تجربة للإمبريالية الأمريكية لنقل أسلوبها الإستعماري وهو حكم الكولونيلات المأجورين الذي طبقته وإعتمدت عليه في إمبراطوريتها في أمريكا اللاتينية إلى الشرق الأوسط وذلك بانقلاب « حسني الزعيم » الذي دبر ونفذ من الألف للياء عن طريق السفارة الأمريكية في دمشق ، ثم أصبحت سوريا حقل تجارب للإنقلابات كما هو معروف ، حتى جاء الإنقلاب الوطني الذي لم يكد ينجح حتى تهددها حلف بغداد وبدأ الضغط لإرغامها على دخول حلف بغداد ، وفي تلك المرحلة الدقيقة تطلعت القوى الوطنية والتقدمية في سوريا إلى مصر ، ومدت الثورة المصرية التي كانت في عمرها الأول يدها إلى سوريا ، وبهذا فقط أمكن حماية المسيرة التقدمية لدمشق . . وجاءت معركة حلف بغداد وكانت فاصلة . . . حددت مصير الشرق الأوسط ولعبت دوراً أساسياً في تاريخ هذا العصر كله ، وكان إفشال حلف بغداد ضربة قاصمة للسياسة الغربية التي أرادت تكملة حلف الأطلنطي ومحاصرة الإتحاد السوفيتي بأحزمة متصلة ومترابطة من الأحلاف والقواعد ، وتكملة لهذا الجهد كانت سياسة باندونج بديلة لسياسة الحزام المحاصر للثورة الإشتراكية الأولى ، وما سبقها وتلاها من ممارسات « عبد الناصر » كشراء السلاح من المعسكر الإشتراكي ، كل هذا أبقى السياسة الأطلنطية محاصرة في أوروبا وهزيلة في جنوب شرق آسيا ، وهكذا فشلت سياسة الغرب تحت الزعامة الأمريكية في حصار الإتحاد السوفيتي ثم « تحريره » كخطوة تالية كما كان يقال أيامها . ومن المؤسف - وهذا مجرد استطراد - أن المعسكر الإشتراكي وعلى رأسه أصدقاءنا السوفيت لا ينسون أبداً دور « عبد الناصر » في إفشال السياسة الأمريكية ضد الثورة العالمية ، ويعتبرونها إنجازا هاماً في حماية حركة التحرر الوطني والتقدم الإجتماعي في العالم كله . في حين هذا هو ما ينساه بعض العرب ! .

المهمة التالية التي قام بها « عبد الناصر » هي تحطيم حائط العزلة بين المشرق والمغرب العربيين وبذلك أفشل أيضاً السياسة الإمبريالية لتقسيم الوطن العربي إلى مغرب من نصيب فرنسا ، ومشرق من نصيب بريطانيا ، ثم الإنتقال بليبيا من إيالة إيطالية إلى منطقة حرام تعزل الأنصبة . وعندما دخلت أمريكا بعد الحرب لتحل محل الجميع فوجئت بعبد الناصر في الساحة ، يؤيد ويدعم إنتفاضات تونس والمغرب وإستقلال ليبيا في مواجهة كل المؤامرات الدولية لتقسيمها بين مناطق النفوذ . ولا جدال في أن وقوف « عبد الناصر » مع ثورة الجزائر كان موقف المشارك فيها وليس المتفرج أو المؤيد بالكلمات .

وكانت الإمبريالية الأمريكية قد أرادت أن تجعل من شبه جزيرة العرب إمبراطورية للبترول وقدساً للأقداس وأن تكون القوة السائدة فيها هي السعودية ، بحيث تدور كل دول وإمارات البترول في فلكها . كانت إمبراطورية البترول هي القضية التي تضع الولايات المتحدة كل مواردها وخبراتها في حمايتها وضمانها . ثم وقعت ثورة اليمن في البلد الذي لم يكن يخطر ببال أحد أنها ستقع فيه وأدرك « عبد الناصر » برؤيته التاريخية مغزى هذه الثورة وماذا تعتمد في المنظور المستقبلي ولهذا أرسل الجيش المصري إلى هناك في عمل من أعظم الأعمال الثورية في تاريخ الأمة العربية وزعزع الجيش المصري كل مشاريع أمبراطورية البترول الآمنة وقلب موازين القوى وولدت جمهورية عربية يمنية ساعدت في ولادة جمهورية يمنية ديمقراطية شعبية ، لا شك أن قيامها قد تم بمساندة مصر مهما حاول كثيرون إنكار هذا .

صلاح عيسى : أود أن نقف بصورة أكثر تركيزاً وتفصيلاً عند تجربة الوحدة المصرية السورية لتحللها من المنظور الناصري .

محمد عودة : عندما بدا واضحاً أن سوريا مهددة من كل جانب ، تركيا والعراق وإسرائيل ولبنان والسعودية والأسطول السادس في البحر المتوسط ؟ تأكد أنها الهدف الإستراتيجي للإمبريالية الأمريكية . وأصبح سندها العربي هو مصر ، وسندها الدولي هو الإتحاد السوفيتي ، وكان تطلعها للوحدة مع مصر تطلع طبيعي ومشروع ، بل ضرورة وجود ، ولكن شكل الوحدة

وطريقة تحقيقها وتوقيتها كان هو المشكلة، كان « عبد الناصر » يريدها أن تتم ناضجة وفي اللحظة الملائمة تماماً أما الأطراف السورية فكانت متعجلة بالنسبة للخطر ، وكما قلنا خوفاً من الحزب الشيوعي السوري الذي كان قوته تتزايد . وبعد فشل عدوان ١٩٥٦ قررت أمريكا إسقاط الحكم الوطني في الأردن فأسقطته ، وقررت إسقاط الحكم الوطني في سوريا وأعدت بالفعل خطة مفصلة بإشراف رجل الإنقلابات « لوي هندرسون » لتنفيذها بمساعدة تركيا والعراق ، وكان إرسال الجيش المصري إلى سوريا عام ١٩٥٧ أول خطوة لإفشال هذا المخطط .

وإذن فإن الأطراف السورية قد تعجلت الوحدة ، لأسباب موضوعية وذاتية أو حزبية . والبناء الفوقي في سوريا - أي الأحزاب والتنظيمات السورية على إختلاف اتجاهاتها - يتميز بأنه دون مستوى القاعدة السورية الشعبية ، ولهذا لم يستطع أي حزب منها أن يستقطب الأغلبية العظمى من الشعب السوري ، وبعد الوحدة ربما كانت أنسب فرصة لحل الأحزاب السورية كلها وإعادة جبهة القوى الوطنية والتقدمية والثورية التي كانت متكاملة في التجمع الوطني وإقامة تنظيم سياسي سوري حقيقي في مستوى الجماهير السورية التي كانت أغلبها بعيدة عن الأحزاب والتي وجدت في الوحدة وفي قيادة عبد الناصر خلاصها .

وكان التطور السليم أن يندمج حزب البعث في القوى التقدمية الأخرى وتندمج فيه وأن يلتصق بالقيادة الثورية لعبد الناصر وبذلك تتكامل مقومات قيادة وإيديولوجية وتنظيم سياسي شعبي عريض ويستقطب الجمهورية كلها . ولكن حزب البعث السوري الذي قام يملأ الفراغ بين تجاهل الأحزاب البرجوازية للقضية الإجتماعية وتجاهل الحركة الشيوعية العربية للقضية الوحدوية ، كان مفروضاً أن يجمع مزايا الأحزاب البرجوازية والشيوعية ويضيف إليها ويعتمد توسيع قاعدته الجماهيرية وعلى تعميق فكره وعلى إجتذاب أوسع قطاعات ممكنة من الوطنيين والإشتراكيين . ولكن ما حدث هو العكس تماماً . كانت قوة حزب البعث في إعتماده على الجيش والضباط الإنقلابيين وأهمل جماهيره ، ولم يلعب الدور الذي كان مؤهلاً له ، ثم انه تعامل مع عبد الناصر على أساس أن يكون عبد الناصر وسيلته في النفاذ الى مصر والى العالم

العربي لتحقيق سياسات حزبية ضيقة الأفق .

وبالنسبة للعراق فان « عبد الناصر » كان يدرك تماماً مغزى العراق بالنسبة للثورة العربية ، وقد قاد المعركة الفاصلة ضد « نوري السعيد » الذي كان رجل الغرب في المنطقة ، ووقفت مصر مع كل الأحرار والثوار العراقيين بلا تحيز قبل الثورة العراقية ، واثر قيامها وإذن فإن القوى الثورية العراقية قد أخطأت لا شك وأساءت لعبد الناصر وجرحت عبد الناصر ، وخاصة عندما اتهمه الشيوعيون بالعمالة لروانتري .

صلاح عيسى : ماذا كان الحل الأمثل في نظرك وقتها ؟ .

محمد عودة : الحوار .. كان الحوار بين القوى الثورية ، الناصريين والبعثيين والشيوعيين وكل العناصر القومية الأخرى ، كان المطلوب، حوار مهما كان حاداً فلا شك أنه كان سيكون إيجابياً ورفاقياً ، ولو حدث هذا الحوار الرفاقي الإيجابي لخرجنا بمزيج من الناصرية والبعثية والماركسية ، كان يمكن أن تكون أساساً لإيديولوجية عربية ثورية أصيلة . ولا أشك في أن الصراع بين « عبد الناصر » والقوى الثورية في العراق كان بداية الإنحسار الذي بلغ ذروته في عام ١٩٦٧ ، ولو كانت الوحدة بين مصر وسوريا والعراق قد تمت عام ١٩٦٣ لقامت دولة عظمى كانت تستطيع تحرير العالم العربي كله وتغيره ، وكنا وفرنا ١٦ سنة من سنة ١٩٥٨ إلى الآن .. هي سنوات الإنحسار الثوري العربي .

صلاح عيسى : لكننا لم نحدد بعد مسؤولية « عبد الناصر » في هذا الإنحسار .. أتعني أن الآخرين أخطأوا ولكنه لم يخطىء ؟ ! .

محمد عودة : طبعاً كانت هناك أخطاء . فلو فرضنا أن ممارسات هذه الأحزاب كلها خاطئة من منطلق أن تناقض « عبد الناصر » معها لم يكن تناقضاً إيديولوجياً أو طبقياً ، ولكن كان تناقضاً سياسياً ، فقد كان على « عبد الناصر » أن يبني الحزب الثوري العربي في سوريا وفي مصر ، ولكن الإتجاه القومي الذي كان ميتاً في مصر كان معادياً في سوريا ، وهذا قاد الإنفصال . وبالطبع فإن الحملة الدعائية التي نشبت في أعوام ٥٩ ـ ١٩٦٥ بين القوى الثورية العربية

كانت خطأً بالغاً من كل الأطراف التي اشتركت فيها . ولقد وددت لو كان « عبد الناصر » أرحب صدراً في تعامله دعائياً مع البعثيين والشيوعيين ولكن فعله كان رد فعل ، وفي كل الأحوال فينبغي ألا نسمح بتكرار هذه الأخطاء ! .

صلاح عيسى : ما هو في رأيك الخطأ الرئيسي في النظام الناصري الذي ولد أخطاءه الأخرى وخاصة في السياسة العربية ؟ .

محمد عودة : تبدأ سلبيات عبد الناصر وتنتهي في العالم العربي بأنه لم يكن يعتمد على تنظيم سياسي ثوري عربي ، يتعامل تعاملاً سياسياً وثورياً مع كل التنظيمات والقوى ، ولهذا اعتمد على الأجهزة الإدارية . ولا نريد أن نغمط حق كثيرين في الأجهزة المصرية لعبوا أدواراً بطولية ولكن الإعتماد على أجهزة بوليسية وبيروقراطية مهما كانت وطنية رجالها ، يتضمن منزلقات خطيرة وعلى الأقل فإن هذ الأجهزة كانت أبعد ما تكون عن فهم إيديولوجية العصر وحركة الجماهير .

ومن ناحية أخرى فإن « عبد الناصر » كان محاطاً بعبادة الجماهير العربية من المحيط إلى الخليج ، وقد خلق لديه هذا إحساساً متزايداً بالكرامة الشخصية والإعتزاز بثوريته ، ومن هنا كان شديد الحساسية تجاه النقد والحوار الحاد وخصوصاً العلني منه ، ولكنه ـ رحمه الله ـ كان ينبغي أن يكون أرحب صدراً ، وأن يلعب دور الأخ الأكبر والأقوى وأن يدرك كثيراً من الحساسيات العربية ، وخاصة لدى القوى الثورية .

صلاح عيسى : والآن . . أن عبد الناصر ليس في الساحة . . وحتى في حدود التصور الذي قدمته عن أهدافه فإن هذه الأهداف لم تستكمل ولم تتحقق كلها . . فكيف تتصور العلاقة بين القوى الثورية العربية والناصريون بالطبع فصيلة من فصائلها ؟ ما هي أوضاعها الراهنة وكيف تتجاوزها ؟ .

محمد عودة : مهما كانت مواقفنا من « عبد الناصر » فإنه كان تتاج جيله أو عصره ، ومهمتنا بعد ذهاب « عبد الناصر » أن نسيطر على عواطفنا وعقولنا وأن نستخلص بموضوعية كاملة كل دروس وعظات المرحلة التي قادها : القوى

الثورية التي بدأت قواها في الصراع فيها بينها لا بد أن تبتدع صيغ وطرق عمل مشتركة جديدة ، إن المنطقة العربية في إخصاب وتفاعل وتوالد مستمر لا يستطيع أحد أن يتنبأ بما قد تتمخض عنه أن هناك ثورة في اليمن ، ودولة ديمقراطية شعبية فيها ، وهناك ماركسية في حضرموت ، وعبوراً في السويس ، والجزائر التي كانت مقاطعة فرنسية أصبحت دولة ثورية . إن كل ما تستطيعه القوى الثورية أن تواصل كهدف دفع الأمور في الإتجاه الثوري باستمرار . فالثورة العربية كالثورة الروسية والثورة الصينية والثورة الفيتنامية سوف تتمخض عن أشكال جديدة ، أن وضع القوى الثورية الآن به نقاط ضوء وظلال أيضاً . إن الخلافات بين جناحي حزب البعث الحاكمين في سوريا والعراق يجب أن تحل لا لمصلحة الحزب فقط ، ولكن لمصلحة الثورة العربية ككل . وصحيح أن كثيراً من العقد والتعصبات ضد الماركسية والشيوعية في العالم العربي قد ذابت ، كما انتهت الى حد كبير المواجهة بين القومية العربية والشيوعية ، ولكن الشيوعيين الى الآن لم يعربوا الماركسية بالدرجة المطلوبة ، ولم يلتصقوا بالواقع العربي ، ولم يصلوا إلى صيغة عمل حقيقية ، والتجربة الفريدة والممتازة التي تجري في اليمن الجنوبية يعيبها بعض التزمت والتعالي الذي لا مبرر له ، والذي يعزل هذه التجربة الثورية الطيبة عن التأثير في عالمها العربي . ومشكلة الناصرية هي أنه إستقطبت أعمق وأعرض الجماهير وليس لها تنظيم حقيقي يعبر عنها ولا قيادة بحجم هذه الجماهير . إن الحوار مطلوب وملتقى فكري للقوى الثورية العربية مطلب حيوي .

صلاح عيسى : وبالنسبة لأوضاع مصر ؟ .

محمد عودة : هناك مهمة طليعية على المثقفين المصريين الناصريين والتقدميين والماركسيين هي أن يقدموا نموذجاً لوحدة القوى الثورية العربية ، هي أن يعملوا لخلق الحزب الناصري . أن صيغة الإتحاد الإشتراكي ثبت فشلها ولا بد أن نملك الشجاعة للإعتراف بذلك . وأما أن نعلن الإتحاد الإشتراكي حزباً واحداً يضم القوى الوطنية والإشتراكية على أن يكون لها وجود ذاتي داخل الحزب كما هو الحال في حزب العمال البريطاني حيث يوجد اليمين واليسار

والوسط محدد المعالم . . وأما أن نطلق حرية حزبية وطنية يقوم فيها حزب ناصري جماهيري يكون حزب الأغلبية واستمراراً لأحزاب مصر الكبيرة والتاريخية ويكون هناك حزب ماركسي لينيني يضم الكوادر المثقفة ، ويلعب دور المعارضة اليسارية ، ثم حزب ديمقراطي برجوازي للبرجوازية الوطنية المعادية للإستعمار يمثل المعارضة اليمينية الوطنية ، على أن يحدد الإطار والحوار والصراع بين هذه الأحزاب في ميثاق جبهة وطنية[1] هذه الصيغة لا بد أن تكون مصرية صرفة تثبت نجاحها في مصر قبل أن تتطلع إلى العالم العربي وتكون نواة التنظيم السياسي الأم الذي تلتف حوله التنظيمات العربية التقدمية .

---

(١) طرحت هذه الفكرة ، قبل التطورات التي انتهت بالإقرار بالتعددية الحزبية في مصر في عام ١٩٧٦ .

١١ شياطين صاحب الفضيلة

أؤكد لفضيلة الشيخ « أحمد حسن الباقوري » أننا لسنا شياطين خرساء ، ولسنا شياطين متكلمين ، فليطمئن فضيلته أننا لم نسكت عن الحق ، ما صمتنا عنه قبل اليوم وإلى يوم يسترد الله وديعته فينا ، حتى لو قطعت منا الألسنة ، أو مزقت الأشلاء ، أو نفيت الرؤوس عن الأبدان .

ولفضيلته علينا حق الشكر ، فقد تذكر وحده دون كل المصريين والعرب ، كاتبين وقارئين وأميين ، أن يوم الإثنين أول يوليو هو يوم عيد الإستقلال الأمريكي فكتب على صفحات « الأخبار » يحيى هذه الذكرى ، ويهنئ الشعب الأمريكي العظيم بها ، وينقل إلينا أقوالاً مجيدة حقاً قالها مناضلون أمريكيون ما أنكر أحد فضلهم يوماً ، ولا جحد أحد - على مر التاريخ وتناقض المواقف - ما قدموه للبشرية من جهد ، من ذا ينكر جيفرسون أو آدمز أو فرانكلين أو واشنطن . أما وقد ناب فضيلته عن شعب جمهورية مصر العربية في تقديم فروض التهنئة وآيات التبريك ، فله منا شكر إذ سبق بالفضل ، ذلك أن شعباً يجهد لتحرير نفسه كشعبنا العربي في مصر - وغيرها من أقطار العالم العربي - من واجبه أن يتذكر دائماً كل دروس التاريخ الكبرى ، وأن يدرس كل حركات التحرر الوطني المعادية للإستعمار وأن يذوب حباً وتقديراً لكل الذين

(*) نشر هذا المقال في الجمهورية ، في ٤ يوليو ١٩٧٤ .. وهو يشير إلى واحدة من الإيماءات الأولى ، للتغزل الأمريكي باللغة الأزهرية .. التي مارسه تيار مسلمي البترودولار فيما بعد ..